الفصل الثاني

إنصاف الصابئة المندائيين
من قِبَل المؤرخين الأوائل

obeikan.com

obeikan.com

هنالك عدد لا يُستهان به من المؤرخين والباحثين والمستشرقين من الأوائل والمعاصرين ، أنصفوا الصابئة المندائيين وأعطوهم حقهم ؛ لأنهم إما اطلعوا على كتبهم وإما عاشوا معهم أو استقوا معلوماتهم من مصادر أمينة ، صادقة ، محايدة ، نزيهة. وسنذكر بكل أمانة وصدق وحيادية أهم هؤلاء العلماء المنصفين ، أصحاب الضمير والوجدان والإطلاع الواسع الأمين:
المنصفون الأوائل:

- أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي:

صاحب المذهب الحنفي (٦٩٩م – ٧٦٧م)
(الصابئة المندائيون من أهل الكتاب ويعبدون الله وما تعظيمهم للكواكب إلا بقايا عبادات قديمة سابقة لا تضير معتقداتهم التوحيدية ، كتقديس المسلمين للحجر الأسود ، ويجوز أكل ذبائحهم والزواج منهم).
وقال في باب الجزية: (تُؤخذ الجزية منهم لأنهم أهل كتاب)

▪ تعقيب:

الجزية فرضها الإسلام على غير المسلمين الموحدين كضريبة لحمايتهم في حينها ، لكن العصر تطور والإنسان تقدم في مجال حقوق الإنسان والمساواة بين الناس ، وكل دساتير العالم ترفض رفضًا قاطعًا شيئًا اسمه الجزية ؛ لأنه يتعارض مع حقوق الإنسان ومع الحضارة البشرية ومع كل القوانين الإنسانية ، والجزية مرفوضة بكل المقاييس وبكل النظم الإنسانية ، واعتُبرَت شيئًا من الماضي من منطق القوي على الضعيف ، منطق الظالم على المظلوم.

- الخليل بن أحمد الفراهيدي: (٧١٨ – ٧٨٩)

قال في معجم العين نقلاً عن الأصمعي:
(إن العرب تجعل الظاء طاءً، ألا تراهم سموا الناظور ناطورًا. وهم يبدلون الصاد والضاد، فيقولون لِما يُلقَى في النار الحصب والحطب والحضب... تمامًا كما فعلوا بكلمة (صبغ) بمعنى عمد بالماء التي بدلوها بكلمة (صبع)، ثم حولوها لكلمة (صبأ) ومنها (الصابئون)، كما قاله اللغويون البصريون (إن قوله تعافى الصابئون محمول على التأخير ومرفوع بالابتداء).

▪ تعقيب:

إن كلمة (الصابئون) أو (الصابئين) قد وردت في القرآن الكريم، ولم ترد في الكتب الدينية المندائية كلها، فنحن مندائيون وكلمة (صابئون) وردت في السور القرآنية: البقرة والمائدة والحج.
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].
ويتكرر ذلك في سورة المائدة وسورة الحج، والحقيقة كما قلنا نحن مندائيون، وهذه صفة عرفنا بها المسلمون وفسروها أنها من صبأ أي مَن ترك دين آبائه واتبع دينًا آخر، وكانت العرب أيام الجاهلية تسمي النبي محمد وتناديه صبئت يا محمد، أي تركت دين أجدادك واتبعت دينًا آخر.
ونحن المندائيون كرد فعل قلنا إن كلمة (صابئون) من الفعل الآرامي صبأ أي اغتسل أو غطس في الماء، من المصدر مصبتا، وقال آخرون إنها نسبة إلى صابي من أحفاد نوح... وهكذا.

---

١ القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية ٦٢

- أبو يوسف القاضي (٧٣١ – ٧٩٨م)

قال القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج:
(الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممَّن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة، ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصةً).
كذلك قال:
(ولا يحل للوالي أن يدع أحدًا من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة إلا وأخذ الجزية منهم، ولا يرخص لأحد منهم ترك شيء من ذلك، ولا يحل أن يدع واحدًا ويأخذ من واحد، ولا يسع لذلك؛ لأن دماءهم وأموالهم إنما أُحرِزَت بأداء الجزية وهي مال الخراج).

▪ تعقيب:

الجزية وسيلة ضغط لدخول الناس في الأديان الموحدة الأخرى الإسلام، رغم أن كلمة مسلم (مشيلماني) كلمة آرامية مندائية ورد ذكرها في كتاب الصابئة المندائيين (الكنزا ربا) ويفسِّرها بعض المفسرين أنها تعني مَنْ وجَّه وجهه إلى رب العالمين، ويفسرها آخرون مِن سلم الناس من يده ولسانه.

- المؤرخ ابن هشام الحميري:

قال المؤرخ ابن هشام الحميري في مستهل الرسالة الشريفة:
(... إن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة وتعاهدوا على نبذ عبادة الأصنام وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا وكوَّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم ولم يشاركوهم في عباداتهم حتى ماتوا على عبادة قومهم صابئين).

▪ تعقيب:

كان في الجزيرة العربية الكثيرون المثقفون من الشعراء والخطباء والأدباء، منهم مَن ذُكِروا في أعلاه، ومنهم مثلاً الشاعر أُمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وطرفة بن العبد، وكعب بن زهير الأيادي، وغيرهم كثيرون كانوا من الأحناف، أي من أتباع النبي إبراهيم الخليل، وعدد من الباحثين يعتبرون إبراهيم الخليل أبي الأنبياء من أنبياء المندائيين، ويقولون كلمة (حنفي) تعني كلمة (صبأ)، ويذهبون أبعد من ذلك فيقولون إن الأحناف من الصابئة المندائيين، وأنهم اختلفوا مع النبي إبراهيم الخليل؛ لأنه دعاهم إلى عبادة الله عبادة خالصة دون الملائكة.
وكان العرب في الجزيرة العربية زمن الجاهلية كما يسمونها يعبدون الله من خلال أصنامهم يتشفعون بها زلفى؛ لأن البدوي يريد شيئًا يراه ويلمسه، فكانت الأصنام وسيلة لهم يعبدون الله من خلالها، وفاتهم أن الأشياء الروحانية لا تُرَى ولا تُلمَس، وإنما الأشياء المادية هي التي تُرَى وتُلمَس.
وهناك مسألة أخرى، وهي أن المندائيين لا يؤمنون أن إنسانا عاديًا يأكل ويشرب ويمرض ويشيخ ممكن أن يكون نبيًا، وإنما النبي لا بد أن يكون ملاكًا.

وثمة مسألة أخرى، وهي أن إبراهيم الخليل قد اختتن بسبب ورم في فلقته، والاختتان عند الصابئة المندائيين حرام؛ لأن الله خلق الإنسان كاملاً، مما اضطر إبراهيم الخليل للهجرة من أور إلى حران.

يقول عدد من الباحثين إن الفرق بين المندائيين والأحناف مثل الفرق بين الكاثوليك والأرذوثكس، ولكن يبقى الاثنان مسيحيين؛ ولهذا يؤكد عدد من الباحثين أن الأحناف والصابئة المندائيين حالة واحدة.

• • • •

- **سيبويه (٧٦٥ – ٧٩٦)**

مفسرًا كلمة (الصابئون):

أي مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم من الموحدين.

obeikan.com

- المسعودي (٨٨٥ – ٩٥٧م)

صاحب مروج الذهب قال:

(إن معاني الشرف الكامل والصلاح الشامل ، ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع ، وأن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات ، هي التي برزوها من أفلاكها وقطعها مسافاتها ، واتصالها بنقطة ، وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم ، من آثار من امتداد الأعمار وقصرها ، وتركيب البسائط ، وانبساط المركبات ، وتتميم الصور ، وظهور المياه وفيضها ، وفي النجوم السيارة ، وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز.

ويُقال إن هذا الرجل؛ويقصد به بو داسف الذي ظهر في زمن الملك طهمورث؛ هو أول مَن أظهر آراء الصابئة المندائيين).

كما قال المسعودي:

(وقام أخنوخ، وهو إدريس النبي، والصابئة تسميه هرمس (أي عطارد)، وهو الذي أخبره الله عز وجل في كتابه أنه رفعه مكانًا عليًا ، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وأُنزلت عليه ثلاثون صحيفة ، وأُنزلت على شيت تسع وعشرون صحيفة، فيها تهليل وتسبيح).

▪ تعقيب:

هناك صابئة البطائح الذين عاشوا في جنوب العراق وجنوب غرب إيران قرب المياه البهية (الأهوار) وقرب مصبات الأنهار دجلة والفرات وشط العرب في العراق والكارون والكرخة في إيران.

وهناك صابئة حران الذين اشتُهروا بعلم الفلك، وفي العصر العباسي اشتهر منهم علماء كثيرون في هذا المجال، وفي علم الطب والفلسفة والآداب، منهم آل قر وآل صابي والبتاني، وغيرهم.

والمسعودي اطلع على علومهم وفلسفتهم فعمم كلامه، ويتضح أنه لم يعاشرهم ولم يطَّلع على كتبهم الدينية؛ لكونها كانت مكتوبة باللغة الآرامية المندائية، ولأن رجال الدين كانوا يتكتمون عنها.

• • • •

- ابن حـزم (٩٩١–١٠٦٤م)

(الدين الذي انتحله الصابئون، أقدم الأديان على وجه الدهر، والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث، فبعث الله تعالى خليله إبراهيم بالدين الذي نحن عليه الآن).

▪ تعقيب:

بُعث إبراهيم الخليل في مدينة أور إلى أتباعه الأحناف، ودعا لعبادة الله عبادة خالصة، أي بدون وسيط، وتبعه كثير من الشعراء والخطباء في شبه الجزيرة العربية، وعدد من الباحثين يعتبرونه أحد أنبياء الصابئة المندائيين؛ للتشابه الكبير بين الأحناف والصابئة، علمًا أن اللغة السائدة في ذلك الزمان هي اللغة الآرامية، ولكونهم يعيشون في نفس المكان، ولتقارب الشعائر والطقوس.

obeikan.com

- أبو الفرج الأصبهاني (٨٩٧ – ١٠١٥م)

ذكر في كتابه (الأغاني) المشهور:
(العرب قبل الإسلام كانوا على معرفة تامة بالعقيدة الصابئية، وإن دين الصابئة كان يعني بنظر المشركين الإيمان بالله والبعث والجنة والنار).

▪ تعقيب:

كان قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية أديان موحدة مثل المندائية واليهودية والمسيحية، وكان أيضًا الأحناف القريبون جدًا من الصابئة المندائيين، حتى أن الشاعر أمية بن أبي الصلت وهو ابن عمة النبي محمد جاء للرسول الكريم وقال له: من أين جئت بهذا الدين الجديد يا محمد؟ قال: إنه دين الحنيفية، دين إبراهيم الخليل. قال أمية: إني سبقتك إليه يا محمد.
ولأمية بن أبي الصلت، وزيد بن نفيل، وقس بن ساعدة، أشعار وخطب تدل دلالة قاطعة على التوحيد بالله قبل الدعوة المحمدية، ويمكن للقارئ مراجعة كتب الكاتبة أبكار السقاف، ويوسف زيدان، وعباس محمود العقاد، وغيرهم؛ ليتأكد من ذلك.
وهنالك عاملان أساسيان بالتقارب الكبير بين الأحناف والصابئة:
الأول: إيمانهم بالله الواحد الأحد.
الثاني: وجودهم في نفس الفترة في شبه الجزيرة العربية، وكثرة أتباعهم من الشعراء والخطباء والمطلعين من مثقفيهم، على مبدأ التوحيد والإيمان بالله.

- الشريف الرضي (٩٧٠ – ١٠١٥م)

ربط بين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي صداقة متينة صادقة ، تبادلا خلالها الرسائل والأحاديث ، وكان أحدهما معجبًا بالآخر ، وكانا يتباهيان لأنهما من الموحدين. ومدح الشريف الرضي صاحبه كثيرًا بقصائد خالدة في الأدب العربي ، فيقول في إحدى قصائده العصماء:

أنت يا فارس الكلام تقدمت وخليت لي مكان الرديف

وعندما مات أبو إسحاق الصابي حزن عليه الشريف الرضي حزنًا شديدًا ، ورثاه رثاءً مريرًا:

أعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلى الأعْوَادِ أرَأيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النّادِي
جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرّ في البَحرِ اغتَدى مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعَ الأزْبَادِ
ما كنتُ أعلمُ قبْلَ اليومِ أنَّ الثَّرَى يَعْلُو عَلَى الأَطْوَادِ

▪ تعقيب:

الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري ، كان من جلساء مجلس الشريف الرضي رغم الخلاف الذي حصل بينهما ، وعندما ألَّف أبو العلاء المعري كتاب (رسالة الغفران) التي نسج على غرارها دانتي الشاعر (الكوميديا الإلهية)... يظن القارئ أن أبا العلاء المعري قد قرأ كتاب الكنز العظيم (الكنزا ربا) ، الكتاب المقدس لدى الصابئة المندائيين ، فكتب رسالة الغفران ، ولكن هناك سقطة لسان من أبي العلاء المعري حين يقول:

إذا ما ذكرنا آدم وفعالهُ وتزويجه بنتيه لابنيه في الخنا
علمنا أنَّ النَّاس من نسلٍ فاجرٍ وأنَّ جميع الخلق من عنصر الزنا

وهذا المنطق والمفهوم يخالف تمامًا الفكر المندائي ؛ لأن آدم عندما نادى ربه كيف يزوِّج أولاده لبناته ، أمر أن ترحل البنات إلى مشوني قشطا ليتزوجنَّ

(المثيل) دموثا أولاد آدم ، وجلبوا دموثا (المثيل) البنات ليتزوجنَّ أولاد آدم ، وهكذا فإن نسل آدم نسل نقي طاهر ؛ ولهذا الأولاد والبنات يكون لهم الاسم الديني (الملواشة) على اسم الأم ؛ لأن رحمها نقي طاهر لأنها جاءت من مشوني قشطا (عالم وسط بين عالم الأنوار وعالمنا).

• • • •

- الشهرستاني (١٠٨٦ – ١١٥٣م)

قال الفيلسوف الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عن الصابئة المندائيين :
(إنهم كانوا على عهد إبراهيم الخليل (ع) وكانوا يقولون إنَّا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، وهذا المتوسط يجب أن يكون روحانيًا لا جسمانيًا ، أي أن يكون ملاكًا من عالم الأنوار ، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها ، وقر بها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، ويماثلنا في المادة والصورة).

▪ تعقيب :

يذكر بعض الباحثين أن سبب اختلاف الصابئة المندائيين مع النبي إبراهيم الخليل(ع) أنهم قالوا له: أنت بشر مثلنا ، والنبي يجب أن يكون ملاكًا.
إن كل شيء مادي كما هو معروف للجميع يُرى ويُلمَس ، وكل شيء روحاني لا يُرى ولا يُلمَس ؛ ولهذا العرب في الجاهلية على بداوتهم صنعوا التماثيل والنصب ؛ لأنهم يرونها ويلمسونها فيتشفعون بها زلفى إلى الله ، وهم يعلمون أنها من صُنع أيديهم.

- ياقوت الحموي (١١٧٨ – ١٢٢٩م)

ذكر في كتابه الشهير (معجم البلدان):
(إن الطيب من عمارة شيت بن آدم (ع) وما زال أهلها على ملة شيت، وهو مذهب الصابئة إلى أن جاء الإسلام فأسلموا، وكان فيها عجائب الطلسمات).
أما حران فهي مدينة عظيمة، ويُذكر أنها أول مدينة بُنيت بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب الملل والنحل، وقال المفسرون في قوله تعالى (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي) إنه أراد حران، وقالوا في قوله تعالى (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إلى الأرض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) هي حران.
وإن ياقوت الحموي امتدح أبا إسحاق الصابي في خمسة وسبعين صفحة في كتابه النفيس (معجم الأدباء)، حيث قال:
(إنه أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل، والاشتمال على الفضائل، وكان قد خدم الأمراء والوزراء والخلفاء من "بني بويه"، وتقلَّد أعمالاً جليلة، ومدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، الوزارة إن أسلم، فامتنع، وكان حسن العشرة للمسلمين، عفيفًا في مذهبه، وكان ينوب أولاً عن الوزير أبي محمد المهلبي في ديوان الإنشاء وأمور الوزارة، وكان بينه وبين الشريف الرضي مودة ومكاتبات، مع اختلاف الملل وتباين النحل، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب، مع تبدد الدين والنسب).

▪ تعقيب:

يذكر لنا بعض المؤرخين أنه بعد أن انحسر الطوفان وجنحت سفينة نوح على سفح جبل قردون في سلسلة جبال أرارات شمال العراق... من الرجل سام بن نوح وزوجته نهوريتا تشكلت الدارة المندائية الجديدة في وادي قريت في مدينة حران التي بناها لاحقًا النبي إبراهيم الخليل (ع) عام ١٨٥٠ قبل الميلاد، قبل

أن يسافر إلى مصر ويتبنى تعاليم النبي إدريس (دنانوخت) الحكيم هرمس أو أخنوخ كما يسميه الفراعنة المصريون.

والغريب في الأمر أن كثيرًا من الباحثين يكتبون ويفسرون على هواهم ويشتقون المعلومات من مصادر الأولين، ولا يكلفوا أنفسهم العيش مع الصابئة المندائيين، ويطلعون على دقائق الأمور بشكلٍ مباشرٍ منهم، فتجد مثلاً كثيرًا من الباحثين يختلفون في تفسير كلمة (الصابئة)، وممكن سؤال الصابئة المندائيين بشكلٍ مباشرٍ.

فهناك مَن يفسرها أنها من كلمة "صبأ" أي مَن ترك دين أجداده واتبع دينًا آخر، والمندائيون يقولون (صبأ) من الفعل الآرامي (صبأ) أي غطس في الماء.

وهناك مَن يقول هم الصابغة؛ ولأن الغين في العربية تحولت إلى همزة في المندائية لهذا سُموا بالصابئة، علمًا أنه لم ترد في الكتب المندائية كلمة (صابئة) وإنما وردت في القرآن الكريم.

obeikan.com

- ابن أبي أصيبعة (١٢٠٠ – ١٢٧٠م)

ذكر في كتابه النفيس (عيون الأنباء في طبقات الأطباء):
(الصابئة قوم يزعمون أنهم قوم على دين نوح "ع" وقبلتهم في مهب الشمال عند منتصف النهار ، ونقل عنهم أن شيت نقل الطب وأظهره ، وأنه ورثه عن أبيه آدم).
ورجح نسب الصابئة إلى (صاب) ابن النبي إدريس.
(ليس بمستبعد أن يكون الفيلسوف العربي الكندي قد اطلع على تعاليم الصابئة ، أو قد يكون قد قرأ الكتب التي ألفوها عن مذهبهم أو الكتابات التي ترجموها عنه ، فقد ذكرت المصادر العربية الإسلامية أن ثابت بن قرة كتب رسالة في المذهب الصابئي وديانتهم ، وذكر أن سام بن ثابت بن قرة نقل إلى اللغة العربية جانبًا من السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون).

▪ تعقيب:

الكتب المندائية وعلى رأسها الكنز العظيم (الكنزا ربا) تؤكد أن العالم النوراني عالم مندائي ، وأن آدم وحواء خلقهم الله (الحي العظيم) مندائيان ، وعلمهم التعاليم والوصايا ، ويُعتبر آدم رأس السلالة البشرية أول أنبيائهم ، وأن سام بن نوح أحد أنبيائهم ؛ لأنه بنى الدارة المندائية بعد الطوفان.
أما قبلتهم ناحية الشمال فهذا صحيح ؛ لأنهم يؤمنون أن عالم الأنوار في الشمال العلوي القصي ، وأن الجنة التي يحرسها الملاك أباثر باتجاه الشمال ، ويستدل على الشمال بالنجم القطبي في قديم الزمان.

- القزويني (١٢٠٨ – ١٢٨٣م)

ذكر في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد):
(عن قدم وجود الصابئة المندائيين في مناطق مختلفة من بلاد وادي الرافدين).

▪ تعقيب:

فعلاً عاش الصابئة المندائيون في بلاد ما بين النهرين ، قرب مصبات الأنهار دجلة والفرات وشط العرب والكارون والكرخة ، وكان لهم وجود ، ورغم قلة عددهم ولكن بعد الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ واختلال القانون وكثرة النهب والسلب والقتل ، وتصاعد الطائفية البغيضة ، هاجر معظمهم إلى دول أوروبا الغربية وأمريكا وأستراليا ونيوزيلندا ؛ طلبًا للأمان ، ولن يبقَ في العراق وإيران إلا عدد محدود منهم ، وهناك عدد منهم ما زالوا عالقين في دول الانتظار مثل الأردن وسوريا وتركيا ، وغيرها من الدول التي تمنح اللجوء الإنساني ، وحاليًا هناك جاليات كبيرة في السويد تُقدَّر بعشرة آلاف مندائي ، وفي أستراليا تُقدَّر بسبعة آلاف مندائي ،وفي هولندا تُقدَّر بخمسة آلاف مندائي ، وفي أمريكا تُقدَّر بثلاثة آلاف مندائي ، ومثلها في ألمانيا ، وهناك عدد في بريطانيا وفرنسا ونيوزيلندا والدنمارك والنرويج وفنلندا وغيرها.

- النويري (١٢٧٨ – ١٣٣٣م)

ذكر في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب):

(الصابئة المندائيون عباد الروحانيات ، ومذهبهم أن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا مقدسًا عن سمات الحدثان ، وكانت الصابئة تقول إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون ملاكًا لا بشرًا مثلنا ؛ وذلك لذكاء الملائكة وطهارتهم وقربهم من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب ، يماثلنا في الصورة والمادة ، وقالوا الواجب علينا معرفة العجز في الوصول إلى جلاله ، وإنما تقرب إليه بالمتوسطات المقربين إليه ، وهم الروحانيون المقدسون عن المواد الجسمانية ، والمبرؤون عن القوى الجسمانية ، أي منزهون عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية ، فلقد جُبلوا على الطهارة ، وفُطروا على التقديس والتسبيح ، كما ذكر العلامة النويري نقلاً عن المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" عن الصابئة فقال:

إن الصابئة المندائيين تزعم أن الكعبة هي هيكل زحل ، وأن نبي الله إدريس أوصى بالحج إليه ، وإنما طال بقاء هذا البيت لأن زحل تولاه.

والثاني بيت المريخ يزعمون أنه كان في صور ، والبيت الثالث المشترى وكان بدمشق ، والبيت الرابع هو بيت شمس وكان بمصر ، ويُسمى عين شمس وآثاره باقية لحد الآن ، والبيت الخامس الزهرة وكان في منبج وخرب ، والبيت السادس عطارد في صيدا وقد خرب ، والبيت السابع بيت القمر وكان في حران وهو بيت الصابئة الأعظم.

▪ تعقيب:

لاحظ تكرار الكلام ، أي أن الكُتَّاب أحدهم ينقل من الآخر ، ولا يكلفوا أنفسهم معرفة الحقيقة بالدقة العلمية والأمانة التي يجب أن يتمتع بها المؤرخ والباحث ،

كان المفروض على المؤرخ أن يتعلم اللغة الآرامية المندائية ويقرأ الكتب المندائية، ويعاشر الصابئة المندائيين ليكتب بأمانة وصدق ودقة وحياد.

وهذا يذكرني بطالب أمريكي وطالب ألماني ، كانت أطروحاتهما عن الجمل العربي ، الطالب الأمريكي جمع بعض المصادر التي تحكي عن الجمل من مكتبة الجامعة ، أما الطالب الألماني فشد الرحال إلى شبه الجزيرة العربية وعاش مع الجِمال ، وتعلم عاداتها ، وأسلوب تربيتها ، ومعيشتها ، وأحوالها ، فجاءت أطروحته أمينة صادقة دقيقة.

وهذا حال الباحثين الذين ينقلون المعلومات دون أن يعرفوا الحقيقة والواقع ودون أن يعيشوا عمليًا مع الناس الذين يقيموهم ويقيمون دينهم، فتأتي بحوثهم ضعيفة غير أمينة، وهذا يضعف البحث ويحرج الباحث.

obeikan.com

- ابن الـوردي (١٢٩٢ – ١٣٤٩م)

قال الشاعر والأديب والمؤرخ ابن الوردي في كتابه (تتمة المختصر في أخبار البشر): (رأيت صحيفتين من صحف الصابئين ، ولكنها عن إدريس نقلاً عن أبي الفداء الدمشقي ، الأولى منها صحيفة الصلاة ، فمنها:

"أنت الأزلي الذي ترتبط به الرياسات ، رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات ، رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ورؤساء الملائكة منك تنزلت العقول إلى مدبِّري الأرض ؛ لأنك السبب الأول أحاطت قدرتك بالكل وأنت الوحدانية التي لا تحد ولا تدرك ، مدبر سلاطين السماء وينابيع النور الدائمة الإنارة ، أنت ملك الملوك الآمر بالخيرات كلها، المتقدم لكل شيء بالوحي والإشارة منك تنبث المخلوقات، وبرمزك ينتظم العالم بأسره ومنك النور ، وأنت العلة القديمة السابقة لكل شيء نسألك أن تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الآن وفي كل أوان إلى الأبد يا ظاهراً متعالياً عن كل دنس ، أحلل عقالنا ، وعافنا من كل مرض ، وبدل أحزاننا أفراحا ، بك نعتصم ومنك نخاف ، نسألك أن توفقنا لتمجيد عظمتك التي يشار إليها ولا ينطق بها منك الكل وبك يستنير الكل ، وأنت رجاء العالمين ومعين الناس أجمعين").

الصحيفة الثانية ، صحيفة الناموس:

(لا يجرين أحد منكم في معاملة أخيه إلى ما يكره أن يعامل بمثله ، و إياكم و التفاخر والتكاثر ، لا تحلفوا بالله كاذبين ، ولا تنقلوا الأباطيل والأضاليل ، ولا تكثروا الهزل والضحك والهمز واللمز ، لا تبدر منكم عند الغضب كلمة الفحشاء ؛ فإنها ترديكم العار والمنقصة ، وتلحق بكم العيب والهجنة ، وتجر عليكم المآثم والعقوبة ، مَن كظم غيظه وقيّد لفظه ، ونظف منطقه وطهر نفسه فقد غلب الشر كله ، استشعروا الحكمة واتبعوا الديانة ، وعودوا أنفسكم الوقار والسكينة ، وتحلوا بالآداب الحسنة الجميلة ، تروووا في أموركم ولا تعجلوا في مجازاة المسيء ، إن تورط أحد منكم وارتكب عملاً منكراً ، فليقلع عن هذا العمل ، ولا يعاوده ، فإنها إن سُترت عليه في هذه الدنيا ، فإنه سينفضح أمره يوم الدين على رؤوس الأشهاد... والله أعلم).

▪ تعقيب:

تصور أن ابن الوردي قرأ صحيفتين من صُحف (الكنزا ربا) التي ينسبها إلى النبي إدريس فانبهر بها، فكيف إذا قرأ فصول من هذا السفر العظيم وبترجمة دقيقة وبلغة عربية سليمة، إن تسبيح التوحيد يصف لنا الله (الحي العظيم) جل جلاله وكأنك تراه، ولنذكر هنا مقاطع قليلة جدًا من تسبيح التوحيد:

بسم الحي العظيم

(هو الذي لا حد له ولا كيل، ولا تدنو عتمة في ضوئه ولا ليل، هو الجلال والإتقان، هو العدل والأمان، هو الرأفة والحنان، الأول منذ الأزل، خالق كل شيء، ذو القوة التي ليس لها مثيل، صانع كل شيء جميل، رب أكوان النور الذي لا ظلمة فيه، الحي الذي لا موت فيه، والخير الذي لا شر فيه، هو الهادي دون غضب، اللذيذ الذي ما نضب، البهي، الساكن في الشمال العلوي، أصل النيرات جميعًا، وأبو الأثريين جميعًا، المقيم في ملكوته، العادل في جبروته، أطلق الكاملين الصادقين، وطبع اسمه على أفواه المؤمنين، وباركهم ببركته أجمعين، قدرته لا تُحصى في العد والحسبان، ولمعات تاجه تنطلق إلى كل مكان، وإشعاعات نوره تنبعث من بين أوراق إكليلة ملء الأكوان).

- ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦م)

ذكر في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ما يلي:

(كانت كتبهم مفقودة إلا ما وُجِد في كتب الأولين فيما قيل نبوءة موسي "ع" مثل النبط والكلدانيين ، فإن جميع مَن تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام، وإنما جاءت كتبهم مواعظ وتوحيد بالله وتذكير بالجنة والنار.

وكانت هذه العلوم في أهل بابل السريانيين ، وفي أهل مصر القبط وغيرها ، وكان لهم فيها التأليف والآثار ، ولم يُترجَم لنا من كتبهم إلا القليل، مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل، فأخذ الناس منهم هذا العلم وتفننوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب وغيرها.

ثم ظهر في المشرق جابر بن حيان، كبير السحرة في هذه الملة، فتصفح القوم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها، ووضع فيها غيرها التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة الكيمياء ؛ لأنها من توابعها لأن حالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر).

- السيوطي (١٤٤٥ – ١٥٠٥م)

حيث قال:

(والصابئون قوم من اليهود والنصارى، مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر في زمن نبينا وعمل صالحًا بشريعته فلهم أجرهم، أي ثواب أعمالهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

(إن النبي إدريس "ع" قد دعا الخلق إلى الله فأجابوه وكانت عقيدة الصابئة، وهي التوحيد "توحيد الله تعالى" والطهارة والصوم وغير ذلك، والقبط تزعم أن الأهرام قبور وأن أحدهم قبر شيت، والآخر قبر هرمس والملون قبر صابي بن هرمس وإليه تنتسب الصابئة، وهم يحجون إليها، وكانت الصابئة تأتي فتحج الواحد وتزور الآخر ولا تبلغ مبلغ الأول في التعظيم).

▪ تعقيب:

نلاحظ أن ما دوَّنه المؤرخون الأوائل في كتبهم ومؤرخاتهم معظمها على ما أعتقد اجتهادات أو روى فلان عن فلان، ولم يقل لنا واحد على الأقل أنه قرأ كتبهم أو اطلع على كتابهم المقدس الكنز العظيم، أو قرأ كتاب تعاليم النبي يحيى بن زكريا "ع" وفهم ما فيه، ورغم علو كعب هؤلاء العلماء الأفذاذ في اللغة والبحث والتدوين ولكننا نرى أن معظمهم لم يصب كبد الحقيقة، وأن أحدهم لم يتخصص ويعطي مزيدًا من الوقت والجهد لاستيعاب معلومات وافية عن الصابئة المندائيين.

فهذا ابن خلدون العالم الكبير والمؤرخ المشهور يذكر أنهم تفننوا في الفلاحة، وأن الناس تعلمت منهم هذا العلم، والحقيقة أن الصابئة المندائيين لم يمتهنوا يومًا الفلاحة ولم يكونوا عبر تاريخهم فلاحين أو رعاة، وإنما أصحاب حِرَف صناعية مثل النجارة، والحدادة، وصناعة الزوارق، والصياغة، والطب،

وهندسة الأفلاك ، والترجمة ، والكتابة ، وعلم الجبر ، والكيمياء ، والفلسفة ، وغير ذلك من العلوم.

كذلك نستغرب عندما نرى الفيلسوف ابن خلدون يتهم العالم الفذ جابر بن حيان بالشعوذة والسحر ، ويعتقد أن له قدرات روحانية بتحويل الشيء من حالة إلى حالة لجهله بعلم الكيمياء، وكأن العالم الكبير جابر بن حيان يملك عصا موسى ، وليس عالمًا كبيرًا في علم الكيمياء الذي على أساسه وأساس علم الفيزياء والعلوم الأخرى تطورت البشرية كل هذا التطور ، وأن ابن حيان ساهم مساهمة فعالة في بناء الحضارة الإنسانية وتطور العلوم.

كما يذكر لنا المؤرخ السيوطي أن الأهرامات في مصر قبور لأنبياء الصابئة المندائيين ، والصابئة يحجون إليها ، ولم أسمع أنا أو غيري من المندائيين يومًا أن أحدًا منهم زار الأهرامات يتبرك بها أو يقدسها لأنها قبور أنبيائهم ، وكلنا يعرف أن الصابئة المندائيين ليس لهم أضرحة أو أولياء يزورون مراقدهم ويقدسونها.. وعلى حد معرفتنا وكما تذكر كتب التاريخ أن الأهرامات قبور لملوك الفراعنة المصريين الغابرين ، خوفو وخفرع ومنقرع ، وهذا ما يعرفه كل المُطَّلعين وما تؤكده كل المصادر التاريخية والآثارية.

والغريب أن السيوطي مصري من أرض الكنانة فكيف ذهب هذا المذهب ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقل المعلومات دون تدقيق وتمحيص ودون أمانة علمية ، ونحن نقول إن هؤلاء الأولين كانوا منصفين ؛ لأنهم لم يسيئوا بسوء نية ، وإنما نقطة ضعفهم نقل أحدهم من الآخر لا غير.

ونعود ونقول إن السبب الرئيسي في جهل المعلومات الوافية والكافية عن الصابئة المندائيين وعن دينهم التوحيدي هم رجال الدين وتكتمهم على هذا الدين غرس التوحيد الأول وتكتمهم وإخفائهم الكتب الدينية وعدم نقلها إلى لغات حية أخرى ، ولكن المشكلة أنهم حرموا منها حتى أبناء ملتهم من الإطلاع عليها ، أضف إلى ذلك عامل اللغة الآرامية المندائية التي لا يعرفها قراءةً وكتابةً إلا عدد من رجال الدين بدقة عالية ، هذا ما كان ولكن الآن تغير الحال حيث قام

عدد من أبناء هذه الأمة المثقفون بترجمة معظم هذه الكتب إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية وبلغة سليمة ، وتم طبع أعداد كبيرة منها وخاصةً الكتاب المقدس (الكنز العظيم) ووزع أحيانًا مجانًا ليكون في كل بيت ، ووزعت نسخ كثيرة منه على المراكز العلمية والأدبية والمكتبات المهمة ، وأصبح حاليًا من الميسور على الباحثين الإطلاع على معظم الكتب الخاصة بالدين المندائي التوحيدي.

obeikan.com

- أبو إسحاق الصابي:

أبو إسحاق من صابئة حران تربع على عرش الكتابة في عصر نهضة الدولة العباسية ، أثبت جدارة عالية لترؤس ديوان الكتابة في دولة إسلامية وهو الصابئي المندائي ، وكان من صناع القرار وكتابة القرار وقد كتب رسالة من رسائله المعروفة إلى أبي الفتح بن العميد يعزيه بأبيه:

(قد سبق في العلم ، وثبت في العقل _أطال الله بقاء سيدنا الأستاذ الجليل_ أن الله عز وجل جلت كبرياؤه ، وتقدست أسماؤه ، القديم بلا ابتداء ، الباقي بلا انتهاء ، لا يشركه في ذلك غيره ، ولا يختص به سواه ، وأنه تعالى أبدع المخلوقات على اختلاف ذواتها ، وتباين موجوداتها ، وأعطى كلاً منها ما أوجبت الحكمة أن يُعطَاه ، فلا سبيل إلى مزيدٍ لها على حدودها التي وقفت عندها ، ولا نقصان من غاياتها التي انتهت إليها. ولهذه المخلوقات منازل في الأعمار لا تتعداها ، ومواقيت في الآجال لا تتخطاها ، فلو أمكن فيها البقاء لارتفع الحدث ولساوى المفعول فاعله ، والمجبول جابله ، وسقط التفاضل بين الأدنى والأشرف ، والأقوى والأضعف. فوجود شخص الإنسان كأن لم يزل مودٍ إلى عدم وكأن لم يكن. ولله عز وجل في ذلك منةٌ على البرية لا يعرفها منهم إلا الفذ الفريد ، والشاذ الوحيد ، لأضعاف عدد عوامهم على خواصهم ، وجهالهم على علمائهم. وكلهم مركب من نفسٍ تسمو إلى الأرفع الأسنى ، ومن جسد يسف إلى الأدون الأدنى ؛ فمن غلب أخس ما فيه أشرفه ، قنط من الموت قنوط الغبي وكرهه كراهة الغر ، وظن أن الله عز وجل قد قطع به عصمته ، وأزال معه نعمته. ومن غلب أشرف ما فيه أخسه أيقن أن الله لايعبث في خلقه، ولا يفكه في نطقه ، ولا يخلفه ما وعد ، ولا ينكل عما ضمن ، وأنه عز وجل قد جبر مصاب الميت جبرين ظاهرين يشهد بأحدهما العيان عاجلاً ، وبالآخر العقل آجلاً ، فالعاجل النسل ، والآجل النشر. فإن أخطأه الأول على عادة الدنيا في تلون أحداثها وتفاضل أرزاقها فهو حاصل على الثاني لا شك فيه ولا شبهة عند كل ذي لبٍّ وديانة...).

وتستمر الرسالة على هذا النهج البديع الذي يمتاز به أبو إسحاق على أهل زمانه.

كان الشريف الرضي معجبًا بمقدرة أبي إسحاق في الرسائل وما يتمتع به من قوة العبارة وجزالة اللفظ وعمق المعنى وفلسفة الطرح، ولقد حزن الشريف الرضي على وفاة أبي إسحاق حزنًا شديدًا ورثاه بقصيدة عصماء مطلعها:

أعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلى الأعْوَادِ أرَأيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النّادِي

جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرّ في البَحرِ اغتَدى مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعَ الأزْبَادِ

ما كنتُ أعلمُ قبْلَ اليومِ أنَّ الثَّرَى يَعْلُو عَلَى الأَطْوَادِ